الفصل الثاني

بواعث الدعاء عند الإنسان

حقيقة الإنسان في القرآن:

الإنسان في القرآن هو هبة الله في خلقه، وظله في أرضه، وخليفته في مُلكه.. يدين بعقله فيما خضع لحواسه، ويدين بقلبه فيما طواه الغيب عنه فلا يدركه ببصره ولاسمعه، ويدين بجسده فيماهو متوقف على حياته ونموه واستمراره..

والإنسان آية عظمى تنطق وتشهد على عظمة الخالق، وفيما أودع فيه سبحانه من العقل والأجهزة الكاملة في صنعها، التامة في أدائها، فكانت خلقة الإنسان على أجمل صورة وأحسن تقويم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[1].

وقد أعطاه الله الطاقات كي يكشف بالعلم كنوز الأرض ويتمتع بطيباتها وجمالها نعمة خالصة من الله.

لكن هذا الإنسان على كل ماستودع الله فيه أمانة الخلافة في هذه الأرض، وعلى كل ماسخر له من القوى والطاقات والأشياء، وعلى ماأودع الله فيه من طاقات المعرفة والاستعداد لإدراك الجوانب الضرورية له في الخلافة وفي النواميس الكونية، ومع كل هذا فهو مخلوق ضعيف تغلبه به شهواته أحياناً، ويحكمه هواه تارة، ويقعد به ضعفه حينا، ويلازمه جهله بنفسه في كل حين.

---

(١) التين: ٤.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[2].

والإنسان هو أنا وأنت! هذا المخلوق العجيب الذى خلقه الله من العدم حين خلقه من التراب ثم تناسل منه ذلك الكم البشرى من بنى آدم، وفى خلق الإنسان وتطوره من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة، آيات تدل وتشير إلى عظمة الخالق قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[3].

ولابد أن نشير هنا إلى بعض العناصر الأساسية لخلق الإنسان.

أولاً: اقتضت حكمة الله وعدله سبحانه وتعالى، جلت قدرته؛ أن خلق الأرض للإنسان يستطيع الحياة عليها، ومادام سبحانه وتعالى هو الذى استدعى الإنسان للوجود فكان لابد أن يوفر له مقومات حياته الأساسية، ومن هذا المنطلق خلق الله الكون بتمام قدرته وقبل أن يخلق الإنسان خلق الكواكب وخلق الأرض والماء والهواء والنباتات والحيوانات، كل هذا خلقه الله ليكون مسخراً لخدمة الإنسان خليفة الله فى الأرض فخلق الله أجناس الوجود تخدم بعضها البعض وكلها تخدم الإنسان، وقد تم هذا الخلق بكمال قدرة الله عز وجل، وهكذا شاء عدل الله أن يعطى الإنسان كل مقومات حياته قبل أن يُخلق ليمارس مهمته فى الأرض.

---

(١) المعارج: ١٩ - ٢١.

(٢) نوح: ١٧-٢٠.

(٣) الذاريات: ٢٠- ٢١ . . .

ثانياً: ومن تمام عدل الله وحكمته البالغة أن أعد الإنسان إعداداً تاماً وقبل أن ينزله إلى الأرض فكانت التجربة العملية التى مر بها آدم حين عصى ربه واستمع إلى وسوسة الشيطان فأغواه وأكل من تلك الشجرة المحرمة التى نهاه الخالق عن الإقتراب منها. فكانت هذه الشجرة فى وضوحها كافية لترى الإنسان ماهو منهج الحياة؟ وماذا سيلاقى؟ وكيف يواجه ماسيلاقيه؟

إنه حقاً تكريم عظيم لهذا الإنسان بأن حباه الله بكل هذه النعم، وأعده تمام الإعداد ليكون خليفته فى الأرض، والتى هى خلافة تنظيم وتدبير وزراعة وعمران..

فكان خلق آدم وذريته من بعده ليعمر الأرض خيراً، وليظل الإنسان على صلة دائمة بالله، عبادة واستغفار وتوبة، والإنسان هو الكائن الوحيد الذى وهبه الله العقل؛ أعظم ماشرف الله به هذا الإنسان، والأوانى تشرف بشرف ما يوضع فيها، فهو مستقر المعرفة، وبصائر الحكمة،وبه يستطيع الإنسان أن يميز بين الخير والشر، ويملك القدرة على التدبير وفنون العلم، وكيف يستفيد من كنوز الأرض لأنها مسخرة له.

وخلق آدم عليه السلام آية إعجاز، وطلاقة قدرة، تجلى فيها عظمة خالقه ومصوّره.

وفى خلق آدم دروس وعبر وحكم. وفيه تكريم وتشريف لآدم وذريته فى أشياء كثيرة وهبها الله لآدم وميزه بها عن بقية مخلوقاته:

١- منها تكريم الحق لآدم حين أمر الملائكة بالسجود له.

٢- وتكريمه حين خلقه جل جلاله بيديه.

٣- وتكريمه بتسخير الأرض ومافيها وحولها له بالقوى الكونية لتكون ملائمة لنمو الحياة الإنسانية.

٤- وتكريمه بما أودع الله فيه من استعدادات عقلية وعملية لاستغلال هذه المسخرات لخير الحياة الدنيا.

٥- وكرّمه الحق حين علمه الأسماء كلها وبهذه الخاصة امتاز عن الملائكة الطاهرين، ويوضح القرآن الكريم الإطار العام للصورة الكاملة المتكاملة للإنسان منذ أن عرف آدم طريقه إلى الدنيا. فهو يحكي سبب خلقه ومستوى ثقافته ومكانته بين سكان الأرض في آيات من سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

والإنسان في القرآن الكريم غير البشر، فمواضع ورود كلمة «بشر» في القرآن تعني أن صفة البشرية فيه هي هذه الآدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق وبهذه الدلالة ورد لفظ البشر، ومن أبرز ماورد عن البشرية في القرآن

(١) البقرة: ٣٠ - ٣٩.

هي ماورد في بشرية الرسل والأنبياء، وتوضيح ظواهر البشرية وأعراضها المادية بينهم وبين سائر البشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1].

ولفظ الإنسان تلتقي مع الأنس وهي دلالة لغوية أصيلة للمادة على نقيض التوحش، والإنسان ليس مناط إنسانيته في إتمائه إلى فصيلة الإنسان كما أنه ليس مجرد بشر تسيطر عليه النزوات المادية، وإنما الإنسان تميز بقدرة الله خالقه ومبدعه إلى الدرجات العُلى التي أهلته لخلافة الأرض، وماتحمّل من تبعات التكليف والأمانة العظمى.

فالإنسان هو المخلوق المميز المنفرد لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل، ومن تدبرآيات القرآن الكريم وتحقق ودقق فيما خص القرآن هذا الإنسان من آيات كثيرة يجد فيها التكريم والتشريف لهذا الإنسان ويدرك حقاً مدى المكانة العالية التي اختص بها الله تعالى هذا المخلوق المميز المنفرد، فقد ورد لفظ الإنسان في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وعندما نتدبر سياقها جميعاً فإننا نطمئن إلى الدلالة المميزة للإنسانية، ويكفينا أن نتدبر ماذكر في القرآن الكريم عن الإنسان ونشأته وتطوره وذلك في سورة العلق وفيها تتجلى الملامح العامة للإنسان، وتكرر ذكره في السورة ثلاث مرات: المرة الأولى ينبهنا الحق إلى آية خلق الإنسان من علق، والثانية تشير إلى إختصاص الإنسان بالعلم، أما الثالثة ففيها تحذير للإنسان ممايتورط فيه من طغيان وفساد ولهو حتى يتمادى به الغرور والطغيان فيعتقد أنه استغنى عن خالقه.

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ

---

(١) الكهف: ١١٠.

الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾[4].

فمكانة الإنسان فى القرآن الكريم هى أشرف مكانة له فى ميزان العقيدة والفكر فهذا الكائن المكلف الذى يفكر ويعقل ويبصر ويتدبر، وبما تهيأ له من وسائل وقدرات العقل فى التبصر والتمييز بين الخير والشر، وذلك كله من جوهر إنسانيته التى تحمل بها الأمانة وتبعات التكاليف فى منهج الله. واستحق عليها الثواب والعقاب.

والإنسان خلق فى كبد: يصارع نوائب الدهر وهموم الحياة، ويعانى كثيراً من الويلات والمصائب، لكنه لديه القدرة وعلك الطاقات التى يتخطى بها الصعاب، ويقتحم العقبات لتحقيق وجوده الإنسانى وأداء مسئوليته الإجتماعية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾[6].

---

(١) العلق: ١ - ٨.
(٢) الإنفطار: ٦ - ٨.
(٣) سورة الإسراء: ٨٣
(٤) النحل: ٤.
(٥) الإنشقاق: ٦
(٦) البلد: ٨ - ١٢

وأهم شيء في الإنسان حقيقة صفاته الأساسية التي لايمكن تعليلها إلا بأنها قبس من أمر الله وهي العلم والإرادة والتعبير والقدرة. إن علم الإنسان وبيانه يدلان مباشرة على خالقه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾[1].

ونلاحظ إن كلمة الإنسان تُطلق على المذكر والمؤنث والجمع أناس، وأما «الناس» فإسم الجمع، وأصل كلمة إنسان «إنسيان» بالياء بدليل تصغيره «أنيسان»، وكلمة إنسان مشتقة من «إنس» والهمزة أصلية من المؤانسة والألفة، وإنسان في نسي من النسيان لأن الله عهد إليه فنسي والهمزة على ذلك في أوله زائدة.

(٢) الرحمن: ١ - ٤.

أهم الصفات البارزة فى الإنسان
ومدى تأثيرها فى نفسه وسلوكه

أما صفات الإنسان وغرائزه وميوله فهى كثيرة، وأهم مصادرها الحديثة مؤلفات علم النفس والأخلاق، فقد ذكر علماؤها العارفون بطبائع الإنسان مايزيد على الثلاثين؛ غير أنه يمكن إرجاعها إلى أربع صفات رئيسية هى:

١- حُب التملك.

٢- حُب التسلط.

٣- حُب الذات.

٤- حُب الشهوات.

* أما حب التملك فينسحب على كل نافع وضار سواء كان حسياً أو معنوياً فالنافع يعود على صاحبه بالخير دائماً، والضار مايُقصد بضره، وقد يعود عليه أحياناً بالخير أيضاً، وذلك بفضل تفهمه والكشف عن خباياه للإنتفاع بمافيه من خير وتجنب مافيه من شر.. إذ لم يوجد الشرالمحض.. حتى إن إبليس اللعين ليس شراً محضاً، إذ لو كان كذلك لما كسب عُصاته ومحاربوه من عصيانهم ومحاربتهم له ثواباً ولما نالوا رضا ربهم وخالقهم، فهو لهذا ليس مصدر شر لمثل هؤلاء بل مصدر خير لأنهم حطموا آماله، ودحضوا مفترياته وأبطلوا أكاذيبه..

* وأما صفة التسلط المشروع وغير المشروع على العقلاء وغير العقلاء فهى مستحكمة على بنى الإنسان أيضاً فهو يحب أن يكون صاحب تسلط وسيطرة وتصرف دائماً فيما يملك، وفيما لايملكه سواءكان حلالاً أم حراماً.. تُعميه هذه الصفة فلاينظر إلى أسبابها ولاإلى مراحلها، ولا إلى غاياتها وماقد تئول عاقبتها عليه بالخسران والوبال.

* وحبُّ الذات وهى الأنانية فتلك شر الصفات حيث لايرى صاحبهاعيوب نفسه ولافضائل غيره بل تحبسه فى ذات نفسه محاولة إقناعه بأن نفسه هى الجديرة بكل خير، المتصفة بكل فضيلة؛ العارية من كل رذيلة، الخالية من كل نقص وعيب، وكأن مرآة الدنيا ليس فيها سوى صاحب هذه الصفة يصبح ويمسى قائلاً أنا أنا فى كل مايفعل أو يذر[1].

* وكذلك الشأن فى حب الشهوات وهى التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾[2].

وهذه المحبوبات المذكورة فى الآية الكريمةهى أهم شهوات الإنسان ومحط آماله..

هذه الصفات الأربع سالفة الذكر يتولد عنها فى الإنسان صفات كثيرة أهمها:

١- صفة الانفعال.

٢- الغضب.

٣- الإنتقام.

٤- حب البقاء واستمراره وذلك بظهور غريزة الأبوة والأمومة.

٥- جحود المعروف ونسيان الجميل والتنكر لكل من أسدى إليه خيراً يؤلمه تذكره.

٦- وتورثه الخوف والجبن.

---

(١) يذر: يترك.

(٢) آل عمران: ١٤.

هذه الصفات الأربع والست المتولدة عنها هي أهم ماذكره علماء النفس والأخلاق عن الإنسان وذلك عند الكلام عن غرائزه.. إلا أنهم ذكروا بالرغم من هذا صفات له حميدة متولدة أيضاً عن الصفات الأربع الأساسية مثل الكرم والشجاعة.. وإذا قارنا بين هذه الصفات وماذكره القرآن الكريم من صفات للإنسان من خلال أدعيته لوجدناه كان ولايزال، أوفى على الغاية فى هذا المقام وأعمق فقد ذكر من الصفات البشرية الكثير والكثير سواء منها ماكان مصدر خير أو شر..

فمن الصفات المستقبحة في الإسلام والتى نهى عنها القرآن والسُنة وظهرت جلياً فى أدعية الإنسان المسلم:

١- النفاق ٢ - الشك

٣ - سوء الظن ٤ - الجدال

٥ - الإلحاح فى نزول العذاب ٦ - العناد

٧ - العجلة ٨ - الاستهزاء بالقيم والأخلاق الفاضلة

٩- المكابرة ١٠- التمرّد

١١- المداراه ١٢- اليأس

١٣- الجبروت ١٤- النكث

١٥- عدم احترام شرف الكلم ١٦- الإفتداء برؤساء الكفر والضلال

وإنصافاً للحق فقد سجل القرآن الكريم صفات كريمة لبنى البشر وامتدحهم عليها وحثهم على دوام التحلى بها، والإلتزام بها فى صفحاته الخالدة.

مثل:

١- الكرم ٢ الأمانة

٣- الوفاء ٤- الصدق

٥- الإيثار ٦- الحياء

٧ - المحبة ٨ - الغيرة

٩ - النجدة ١٠ - الإباء

١١ - الشهامة ١٢ - الشجاعة

١٣ - الصبر ١٤ - الحكمة

١٥ - بُعد النظر

. . . ويمكن إدراك معظم هذه الصفات من خلال أدعية الإنسان. . .

ومن أجل غلبة الصفات الأربع سالفة الذكر وما انبثق عنها من تلكم الصفات الحميدة غالباً، كان من إكرام الله تعالى لابن آدم أن زوّده بطاقات عظيمة، ونعم لاتحصى حتى تكون زاده في الحياة. . كما سلحه بأسلحة شتى لكي يقاوم بها ماقد يستبد به من صفات لوتركت على سجيتها من غير حدود على طبيعتها، لدمرت حياته تدميراً. وكان من أهم هذه النعم وتلكم الأسلحة التي زود الله بها الإنسان :

١ - العقل.

٢ - قوة الإرادة.

٣ - الرسل.

٤ - الكتب المقدسة.

٥ - الصحف المنزلة.

٦ - وكل ماسوى الإنسان فهو نعمة له من الله مسخرة ومذللة له. .

كذلك زوده الله تعالى بطاقات روحية من إيمان به جل شأنه، وتوكل واعتماد عليه، والتزام بطاعته، واتباع أوامره، واجتناب محارمه، ومنحه الاستعاذة يرددها عند الأزمات، ويتلوها عند النكبات لتكون له حصناً ووقاية وهداية ونوراً. . كما أمره الله تعالى بالدعاء والتضرع والمناجاة والإلتجاء إليه عند الملمات والكوارث في أي وقت أو مكان.

بواعث الدعاء ومدى ارتباطها بسجايا الإنسان:

البواعث الحاملة للإنسان على الدعاء كثيرة جداً كثرة شئون حياته، فهى متعددة بتعدد آماله وآلامه وغاياته وأهدافه غير أنه يمكن إيجازها فيما يلى:

١- شخصية.

٢- وغير شخصية.

فالشخصية إما لنفسه أو عن نفسه أو تهكماً وإستهزاءً وسخرية...

أى إما أن يكون داعياً لنفسه بالخير عاجلاً أو طالباً الإستزادة، منه أو دوامه... وإما أن يكون داعياً لدفع ضر عن نفسه عاجلاً أو آجلاً أو طالباً التنقيص منه أو إزالته بالمرة.

وإما أن يكون داعياً على نفسه تهرباً من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

وإما أن يكون داعياً تحدياً واستهزاء وتهكماً..

وغير الشخصية: إما على وجه العموم أو الخصوص أو للإنتقام والتشفى والقصاص أى أما أن يكون داعياً لجميع المسلمين على إمتداد الأرض بالخير ودفع الضر.

وإما أن يكون داعياً للبعض بالخير تأسيساً أو استزادة أو استدامة أو لدفع الضر.

وإما أن يكون داعياً على البعض قصاصاً أو إنتقاماً وتشفياً..

فالله تعالى قد منّ على الإنسان بالوجود والإستخلاف والتسخير لكل ماعداه مما يخضع لقواه ويمكن الإنتفاع به.. فلاعجب إذا رأيناه يتجه إلى ذلك بفطرته ويستغل كل ماحوله ويذلله، وهذا قدر مشترك بين الكائنات الصوتية تتجه إلي الخير حيث يكون كما تفر من الشر حيثما حل.. ويتميز الإنسان من بين هذه الكائنات بالدعاء لإستجلاب الخير ودفع الضر وبخاصة إذا عجز عن تحقيق ذلك بواسطة إمكاناته ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا أصدق تعبير فقال: «لايسأم

الإنسان من دعاء الخير» فليس فى قاموس اللغة العربية مايفيد فائدة هذه الكلمة وماتهدف إليه. . فالإنسان لايمل الدعاء لنفسه سواء كان لجلب الخير أو دفع ضر فتلك طبيعة البشر تنفر مما يسبب لها التعاسة والألم لأنها تأبى الضيم وتهرب مما يسبب لها الشقاء ولقد أبدع القرآن المجيد فى التعبير عن هذا حتى لكأنك تراه مجسماً مجسداً فقال: «وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض». ولقد استعملت العرب كلمة «عريض» كناية عن الكثرة وليس فى كلامهم أدق ولاأرق من هذا البيان فى هذا المقام.

وتمتد إنسانية إنسان القرآن فى هذا المجال لتتخطى ذاتها إلى الأقرباء والخلان فتشملهم بما شملت به نفسها من تضرع ودعاء واستنجاد لاستجلاب الخير لهم ودفع الأذى عنهم إذ هى بهم ومنهم ولهم فيصور لنا القرآن هذا فى سورة الحشر على لسان من جاءوا بعد صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار فيقول:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

وتتسع رحابة المسلم التقى لتشمل كل أهل عقيدته فيدعو لهم بمثل مايدعوبه لنفسه يذود بهذه الأدعية عن حياضهم راجياً لهم من الله تعالى التوفيق والسداد فى الدارين ولذا جاءت هذه الإستغاثات فى صورة الجمع لتكون لله خالصة وادعى للقبول فقال هؤلاء الصالحون:

﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾[2] ولقد ضرب القرآن الكريم المثل الأعلى فى هذا المقام حيث أمر المؤمنين به أن يسلكوا فى دعائهم الطريق الجماعى بل فرض ذلك عليهم فى أعظم فريضة فى الإسلام ألا وهى الصلاة وذلك أثناء قراءته الفاتحة حيث قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ الآية.

---

(١) الحشر ١٠.

(٢) آل عمران: ١٩٤.

هذا المؤمن الذى خطوه على هذا الدرب لايستبيح لنفسه أن يجعل كل همه ودعائه محصوراً فى حياته الدنيا، كما أنه لايطلب الخير لذاته بل لإبتغاء مرضاة الله لأنه كم من خير فى ظاهر أمره وحقيقته الوبال والخسران على صاحبه لهذا اعتاد هذا المؤمن أن يقول فى دعائه:

«اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه» فهو لم يتخذ الدنيا وخيرها نهاية له وغاية بل اعتبرها معبراً لدار أفضل وحياة أهنأ ومقام أخلد فانطلق لسانه قائلاً: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1] كما تعلم المؤمن من المصطفى أن يقول: «اللهم لاتجعل الدنيا أكبر همنا ولامبلغ علمنا» وأن يقول أيضاً: «ربنا أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» وأن يقول: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾[2].

هذا النوع الممتاز من الناس يدعو الله فى الرخاء كما يدعوه فى الشدة لأنه وعى قول الحبيب «تعرف على الله فى الرخاء يعرفك في الشدة» فهوليس بموسمى الدعاء ولاانتهازى الفرص. ولاأنانى السلوك والمبدأ ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[3] بل على النقيض من ذلك لعلمه بنفسه وبقضايا دينه وصلته بربه وبخالقه فهو على طاعته تعالى فى المنشط والمكره إن أصابه ضراء صبر وإن أصابه نعماء شكر.

أما المشرك والكافر والمنافق فهم على العكس من ذلك لايعترف الواحد منهم بالله إلاعند الضرورة القصوى، وذلك حينما تنقطع به أسباب الحياة والنجاة وتضل عنه آلهته التى عبدها زوراً من دون الله ووقتها يتأكد أنه كان في وهم وخيال وقد انحسر عنه الظلام وبدا نور الحق فى الأفق وضاء.. يضطر ذلك العنيد الضعيف أن يعاهد ربه أن أنجاه ومد فى حياته ليكونن من الشاكرين فإذا مااستجاب الله دعاءه ولبىّ استغاثته وأنقذه من ورطته ارتد إلى حالته الأولى

---

(١) البقرة: ٢٠١.
(٢) آل عمران: ١٩٤.
(٣) المعارج: ٢٠ - ٢١.

وكأن لم يكن شيء بل ربما البعض من هذا الصنف لايكتفي بمثل هذه الردة فيتوغل في الطغيان أكثرمن ذي قبل وينأى بجانبه عن جناب الله وواسع رحمته.

هذا الصنف من الناس لايعرف طريق الله إلا عند الأزمات واشتداد الخطوب وكل من كان أمره كذلك لن يوفقه الله إلى مايسعده من دعاء لهذا فهو عن اسعاد نفسه عاجز وعن إسعاد غيره أكثر عجزاً لأن فاقد الشيء لايعطيه غيره فهو في صورته هذه لايتسنى لمثله أن يمد يد المساعدة دعاء إلى أهله وخلانه.

بل ربما دعا هذا الصنف من الخلق ربه تهكماً قائلاً كما قال كفار مكة ﴿ **اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٣٢﴾ ﴾[1] هكذا قالوا لسيد الرسل كما رددوا لإخوانه السابقين عليه لكل منهم ﴿ **ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[2].. وأن مثل هذا النوع من الناس لايفرق بين أدعية الخير والشر فهما في نظره سواء.. ولوعاملهم الله تعالى بمقتضى استعجالهم لما أبقى منهم على وجه الأرض أحداً. إذ هم يستعجلون الشر بالدعاء على عجل ولذلك قال الله: ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾[3].

وهناك نوع آخر من البشر طفولي بطبعه أناني بسجيته يغلب عليه عنصر الاستحواذ على كل شيء فإذا لم يوفق في حياته ولم يبلغ مُناه دفعته هذه الصفة إلى الانتقام من نفسه ومن غيره.. هذا النوع ضعيف الإيمان هزيل اليقين مضطرب التفكير إذا خانه الحظ وجاوزه أقام الدنيا وأقعدها سابا للدهر والأعوام وإذا ضاقت ذات يده بالنفقة على أهله تراه متبرما بالحياة التي أصابته بشظفها وثقلت عليه بنفقات أولاده.

فهذا الصنف لايرتضي قانون الحياة ولايثق فيما عند الله ولايؤمن بقضائه وقدره.. كما لم يفهموا قول المصطفى لجبريل عليهما السلام «حينما عرض عليه

---

(١) الأنفال: ٣٢

(٢) العنكبوت: ٢٩

(٣) يونس: ١١.

إن رضي أن يجعل له جبال مكة ذهباً» «لايا أخي جبريل أجوع يوماً فأصبر وأشبع يوماً فأشكر» فرسول الله يرضى بهذا الوضع ليكون علي قرب من الله دائماً وهؤلاء لايرتضون ذلك لهم منهجاً ولايبغون سلوكاً. . بل الأشنع من ذلك أن فيهم من إذا كرهوا سخطوا وإذا سخطوا دعوا، وإذا دعوا بالغوا، وإذا بالغوا فجروا وتشفوا ولم يعلموا أن لكل أمرىء أحباب وأعداء، والمتزن فى سلوكه هو الذى لايبالغ فى الحب ولايتمادى فى الكره فعسى الأيام أن تريه من صديقه أوعدوه عكس ماظن وارتأى له. .فلا ينبغى الدعاء على الغير ولا على النفس بما يوردها موارد الهلاك فقد وردت عن المصطفى أحاديث كثيرة تنهى المسلم عن اتخاذ هذا الطريق مركباً فلاينبغى الدعاء على النفس والولد والمتاع وكل مايمكن الانتفاع به وماعساه أن ينتظر منه الخير مستقبلاً خشية أن يصادف هذا الدعاء قبولاً عند الله فيقع المحذور ويندم الداعى ويأت ساعة الندم.

هذا الصنف من الناس «وإن نطقوا بالشهادتين» ليسوا لأنفسهم خيراً ولالذويهم. ولا لأحبابهم خيراً فضلاً عن أن يكونوا لأعدائهم كذلك، وكأنى بهم لم يقرأوا قصة الرجل الصالح الذى سُرق ماله فلم يتبرم بقضاء الله وقدره ولم يسخط على الدهر أيامه، ولم يدعُ على من سلب ماله وسرقه، بل قال كلمة صارت مثلاً وحكمة قال: (اللُهم إن كان فى حاجة إلى ماأخذ فبارك اللهم له فيه، وإن كان فى غيرحاجة إلى ماأخذ فاجعلها اللُهم آخر سرقة له.

وهكذا ينبغى أن يكون الإنسان المؤمن التقى.